



التصوف السوداني: التاريخ والواقع والموقف من الحرب

محمد خليفة صديق - السودان

مقدمة

والعنف الذي تمثله جماعات مثل داعش وبوكو حرام. وفي السودان، انتشرت الطرق الصوفية في مختلف أنحاء البلاد، حتى بلغ عددها نحو أربعين طريقة رئيسة وفرعية، من أبرزها القادرية، والختمية، والسمانية، والشاذلية، والمكاشفية، والمجذوبية، والإدريسية، والرشيديّة، والتيجانية. كما امتد تأثير بعضها إلى دول الجوار مثل مصر وتشاد ونيجيريا. ويرى عدد من الباحثين أن بعض الطرق الصوفية شهدت خلال العقود الأخيرة تحولات جعلتها أكثر ارتباطاً بالهويات المحلية والإقليمية، بعد أن كانت تمثل أطراً اجتماعية واسعة تتجاوز الانتماءات القبلية والجهوية.

يحاول هذا المقال أن يقف على حجم الحضور الصوفي في السودان، وخريطته الجغرافية والاجتماعية، وموقف الطرق الصوفية من الحرب الدائرة منذ أبريل ٢٠٢٣، وهل تتبنى

يُعد التصوف أحد أبرز المكونات الدينية والاجتماعية في القارة الإفريقية، حيث تشير تقديرات مختلفة إلى أن عدد أتباع الطرق الصوفية في إفريقيا يقارب ١٠٠ مليون شخص. وقد سعت دول عديدة إلى الاستفادة من النفوذ الاجتماعي والديني للطرق الصوفية لبناء قواعد تأييد شعبية تدعم استقرار الأنظمة السياسية وتساندها في المحطات الانتخابية والتحالفات المختلفة.

وتزايد الاهتمام الرسمي بالتصوف مع تصاعد الحركات الإسلامية المتشددة، إذ يرى بعض الباحثين أن الخطاب الصوفي المعتدل يمكن أن يساهم في مواجهة التطرف

هذه الطرق موقفاً موحدًا أم تتباين مواقفها وفقًا لاختلاف مرجعياتها؟ بجانب قراءة لعلاقات التصوف السوداني بالتيارات الصوفية الإقليمية في الإمارات ومصر وتركيا والمغرب والجزائر وغيرها.

الجذور التاريخية للتصوف في السودان

تُعد الطريقة الشاذلية من أوائل الطرق التي انتشرت في السودان، تلتها الطريقة القادرية التي أصبحت، بتفرعاتها المختلفة، الأكثر انتشارًا في البلاد. وتشير بعض التقديرات إلى أن أتباع القادرية العركية وحدها يبلغون عدة ملايين من الأشخاص.

ويرى المستشرق ج. سبنسر ترمينغهام أن موجة جديدة من المد الصوفي شهدتها السودان في مطلع القرن التاسع عشر، متأثرة بالتطورات التي شهدتها العالم الإسلامي آنذاك، بما في ذلك التوسع الأوروبي، وظهور الحركة الوهابية، ودعوته إلى العودة إلى أصول الدين، ونقد بعض الممارسات المرتبطة بتعظيم الأولياء.

ومن الشخصيات المؤثرة في هذا السياق السيد أحمد بن إدريس الفاسي (ت ١٨٣٦م)، الذي ترك تأثيرًا واسعًا في السودان رغم أنه لم يزره. فقد أسس الطريقة الإدريسية، وتتلذ على يديه عدد من الشخصيات التي أسهمت في تأسيس أو إحياء طرق صوفية أخرى، مثل محمد المجذوب الصغير والشيخ إبراهيم الرشيد ومحمد عثمان الميرغني، مؤسس الطريقة الختمية، التي أصبحت إحدى أكبر الطرق الصوفية في شرق السودان وشماله.

كما دخلت الطريقة التيجانية إلى السودان عبر مصر، إلى جانب طرق أخرى أقل انتشارًا مثل البرهانية والندراوية والعزمية، فضلًا عن امتدادات لبعض الطرق المصرية كالسوقية والرفاعية والأحمدية والبيومية.

الصوفية السودانية وحرب ٢٠٢٣

وضعت الحرب التي اندلعت في السودان في أبريل ٢٠٢٣ الطرق الصوفية أمام اختبار بالغ الصعوبة. فمن جهة، حاول عدد من مشايخ التصوف القيام بأدوار وساطة ومبادرات محلية لوقف إطلاق النار واحتواء النزاع، وحققت بعض هذه الجهود نجاحات محدودة في مناطق معينة، أبرزها مدينة الفاشر. ومن جهة أخرى، برزت تباينات في مواقف بعض الطرق والقيادات الصوفية تجاه أطراف الصراع. فبينما وصفت بعض القيادات الحرب بأنها «عبثية» ودعت

إلى وقفها فورًا، اعتبر آخرون أنها معركة تخوضها الدولة ومؤسساتها العسكرية ضد تمرد مسلح. ومع ذلك، فإن القاسم المشترك بين أغلب المكونات الصوفية يتمثل في الدعوة إلى الحفاظ على وحدة السودان وتجنب الانزلاق نحو مزيد من الانقسام.

وتنبع أهمية الموقف الصوفي من الحرب من الثقل الاجتماعي والديني الذي تتمتع به الطرق الصوفية، وقدرتها على التأثير في قطاعات واسعة من المجتمع السوداني، فضلًا عن دورها التاريخي في الحياة السياسية.

أبرز المواقف الصوفية في الحرب

• مبادرة الطيب الجد

أطلق الزعيم الصوفي الراحل الشيخ الطيب الجد ود. بدر مبادرة «نداء أهل السودان»، التي ضمت عددًا كبيرًا من الأحزاب السياسية وزعماء القبائل والطرق الصوفية. وركزت المبادرة على دعم مؤسسات الدولة، وتحقيق الأمن والاستقرار، ومعالجة الأوضاع الاقتصادية، والتهيئة لانتخابات عامة في إطار عملية سياسية توافقية.

• لقاءات المجلس الأعلى للتصوف مع البرهان

شهدت الفترة الماضية عدة لقاءات بين رئيس مجلس السيادة الفريق أول عبد الفتاح البرهان وقيادات المجلس الأعلى للتصوف. وتركزت هذه اللقاءات على دور الطرق الصوفية في تعزيز التماسك المجتمعي والمساهمة في جهود الأمن والاستقرار.

• المسيرات والتظاهرات الداعمة للجيش

نظمت مجموعات صوفية وإسلامية في عدد من الولايات مسيرات وفعاليات جماهيرية دعمت القوات المسلحة السودانية خلال الحرب. وبرزت هذه الأنشطة بصورة خاصة في ولايات ذات حضور صوفي كثيف، مثل الولاية الشمالية والنيل الأزرق، حيث رفعت شعارات مؤيدة للجيش وداعية إلى إنهاء التمرد.

• دعوات صوفية خارجية للسلام ووقف نزيف الدم

امتد الاهتمام بالحرب السودانية إلى دوائر صوفية خارج البلاد، خاصة في الجزائر، حيث دعا عدد من القيادات التيجانية إلى تغليب الحكمة والحوار ووقف الاقتتال. كما



الأكبر للتيار الصوفي في المنطقة، حيث سعت لاستغلال بعض الطرق الصوفية السودانية، وهو ما أكده الباحث البريطاني البروفيسور أندرياس كريغ، المحاضر في الدراسات الأمنية بكلية كينغز بلندن في مقاله في ٢٢ يناير ٢٠٢٠، أن «الإمارات لا تختلف عن القوى الأخرى التي تستخدم الدين لخدمة سياساتها لكنها تتبنى نسخة أخرى من الإسلام السياسي وهي الصوفية». وقال: «الإمارات سارعت إلى حشد قدراتها المالية والعسكرية لتشكيل المستقبل الاجتماعي السياسي للمنطقة من ليبيا ومصر واليمن إلى السودان لتصبح القوة الأولى المعادية للتغيير والثورات، بل تدعم الأنظمة المعادية للمجتمع المدني، وتقف مع الحكم العسكري»، وأضاف: «حكام الإمارات اختاروا الصوفية باعتبارها الفرع الأهدأ سياسياً في الإسلام والأقوى تبنيًا لفضائله الأكثر جوهريّة، وهو ما يروق للغرب، وقد استخدمت تلك الدولة الصوفية بمهارة، وقامت برعاية مراكز صوفية في ليبيا ومصر والإمارات والسودان». ونشرت صحيفة «الاستقلال» في ديسمبر ٢٠١٩، تقريراً بعنوان «زار السودان مراراً. كيف وظفت الإمارات "الجفري" سياسياً؟»، والحبیب علی الجفري هو مبعوث الإمارات الصوفي، إلى سائر الأقطار العربية، والذي يعمل على تحقيق هدفها وترسيخ دعمها للطرق الصوفية. وذكر التقرير أن «الجفري أجرى عدة زيارات إلى السودان، وعقد لقاءات مع مشايخ الطرق الصوفية، وأعقبها بعد ذلك عدة مؤتمرات»، وأضاف: أن «زيارة رجل الدين الصوفي الحبيب

صدرت بيانات من مؤسسات صوفية أكدت أهمية الحفاظ على وحدة السودان ومعالجة الأزمة عبر الوسائل السلمية.

• تحركات الأحزاب ذات المرجعية الصوفية

دعت أحزاب سودانية ذات امتدادات صوفية، وعلى رأسها الحزب الاتحادي الديمقراطي الأصل، وحزب الأمة القومي إلى إطلاق حوار وطني شامل يجمع مختلف الأطراف السودانية، كما تبنت قوى سياسية أخرى مواقف مماثلة تدعو إلى إنهاء الحرب عبر التفاوض والتوافق الوطني.

• مليشيا الدعم السريع ودعم بعض الطرق الصوفية

شهدت فترة سيطرة مليشيا قوات الدعم السريع على مناطق في العاصمة وما حولها دعم وتأييد من بعض الطرق الصوفية ذات العلاقة بالإمارات، كما فعل الشيخ الأمين عمر زعيم الطريقة القادرية، المكاشفية، بمنطقة ود البنا بأم درمان، الذي دعم من قوات التمرد أيضاً وقتها، ولكن عقب دخول الجيش لأم درمان وإعادة السيطرة عليها انحاز للجيش وأنكر أنه كان داعماً للمليشيا.

• التصوف السوداني والإمارات

الأمر يتجاوز الشأن الداخلي في السودان، ليتقاطع مع السياسات الدينية لبعض الأطراف الخارجية، على رأسها الإمارات التي تدعم شبكات التصوف السياسي، وتستخدمها لتنفيذ إستراتيجيتها باعتبارها الحاضن

علي الجفري المتكررة إلى السودان، أثارت تساؤلات كثيرة من المتابعين لتحركات الجفري».

والجهات الصوفية التي تدعمها الامارات وزارها الجفري من قبل هي: المجمع الصوفي العام برئاسة الشيخ محمد حسن الفاتح قريب الله، رئيس المجمع الصوفي وشيخ الطريقة السمانية الطيبية القريبية، والطريقة القادرية، المكاشفية، بزعامة الشيخ الأمين عمر الأمين بمنطقة ود البنا بأم درمان، والطريقة السمانية الخلوتية برئاسة الشيخ الياقوت بضاحية جبل أولياء جنوب الخرطوم، والطريقة الختمية وغيرها.

كما سعى الجفري لضم صوفية السودان للمشروع الصوفي العالمي، حيث رتب لهم المشاركة في مؤتمر غروزي بالشيشان الذي حضره لفيف من العلماء تم اختيارهم بطريقة انتقائية، وهم: محمد حسن الفاتح قريب الله، شيخ الطريقة السمانية ورئيس المجمع الصوفي العام، وصلاح الدين سر الختم، نائب رئيس المجمع الصوفي العام والقيادي بالطريقة الختمية، ومحمد توم الأمين مسؤول المال بالمجمع الصوفي العام.

وما يجدر ذكره أن موقف الامارات تجاه الحرب في السودان كان مساندا لمليشيا الدعم السريع، بتقديم الدعم المادي والعسكري والمعنوي لها بكل الطرق المتاحة، فهل سيؤثر ذلك على علاقة هذه الطرق الصوفية بالإمارات مستقبلاً؟

خاتمة

يمثل التصوف في السودان أكثر من مجرد تيار ديني؛ فهو مؤسسة اجتماعية وثقافية ذات حضور راسخ في الحياة العامة، وعلى امتداد التاريخ الحديث، ظلت الطرق الصوفية فاعلاً مهماً في المجالين الاجتماعي والسياسي، واستطاعت الحفاظ على نفوذها رغم التحولات الكبرى التي شهدتها البلاد.

وخلال الحرب الراهنة، برزت الطرق الصوفية بين داعم

لمؤسسات الدولة، وداعٍ إلى الحوار والسلام، وساعٍ للوساطة بين الأطراف المتنازعة. ورغم اختلاف المواقف والتقدير، فإن تأثيرها المجتمعي الكبير يجعلها مرشحة للعب دور مهم في أي عملية مستقبلية للمصالحة الوطنية وإعادة بناء الثقة بين السودانيين.

ووفق متابعين، وبالنظر إلى التاريخ السوداني فإن الطرق الصوفية لا تلعب دوراً سياسياً بارزاً ومؤثراً إلا حينما يطلب منهم ذلك ويوظفهم الحكام حسب إرادتهم، فيكونون مع من غلب، ولا يصطدمون برأس السلطة والجيش بشكل مباشر، مهما كلف الأمر.

ويبقى السؤال مفتوحاً حول ما إذا كانت الطرق الصوفية ستتمكن من تحويل رصيدها الجماهيري والروحي إلى قوة فاعلة تسهم في إنهاء الحرب وتعزيز السلام، أم أنها ستظل متأثرة بالاستقطابات والانقسامات التي فرضتها الأزمة السودانية الراهنة؟

مراجع

عوض النقر با بكر، الصوفية في السودان.. القوة الناعمة في معركة السلطة، الجزيرة

نت، ٢٠٢٦/٥/٢٠، الرابط: [3wirVyl/https://acesse.one](https://www.3wirVyl/https://acesse.one)

نورا فايد، المؤثرات الصلبة.. كيف تتحرك «الصوفية» في الأزمة السودانية؟، القاهرة

الإخبارية، ٢٥ أبريل ٢٠٢٣، الرابط: <https://11nq.com/gjl3sby>

عمرو رشدي، خريطة الطرق الصوفية في أفريقيا، الأكاديمية الدولية للدراسات

الصوفية، ٢٠٢٣/١١/٠٢، الرابط: <https://shorturl.at/oUCES>